17

نهاية فيتنام

سرعـان ما تعلم أولئك الذين حَسبوا أن الألم الناجم عـن كمبوديا يمكن أن يعودهم على احتمال ألم انحلال جنوبي فيتنام، علماً أفضل، وذلك أن النهاية المأساوية لعقدين من التضحية الأمريكية، والتفاني الأمريكي، والانقسام في صفوف الأمة، كل ذلك أثبت أنه يتجاوز إطار الأمور التي يمكن التعود عليها.

ففـي 10 آذار شن الفيتناميـون الشماليون، الذين ما عادوا يتظاهرون مجرد تظاهر، بأنهم مرتبطون باتفاقية باريس، هجوماً رئيسياً في المرتفعات الوسطى مستخدمين فِرقاً تم إدخالها في المعركة حديثاً، مـن الشمـال. واكتسحوا ملتقى الطـرق الاستراتيجي عند بان مي ثووت، فـي يومين، فقطعوا كل الطرق التـي تؤدي من سايغون، إلى المرتفعـات الوسطى، باستثناء طريق واحد قليل الجدوى على حد بعيد نظراً لتعرضه للإزعاج الدائم من قبل عصابات الفيتكونغ.

وبينمـا كانـت المرتفعات الوسطى تترنح، أرسل تران فان لام، وهو من المقربين إلى الرئيس ثيو، إلى واشنطـن ليلتمـس المعونة التكميليـة، وأبلغ سايغون أن ليـس هناك من أمل في الحصـول على أية معونة إضافية من الكونغرس الحالي. فتحول الخوف إلى حقيقة واقعة كما رأينا في الفصل السابق. ففي مؤتمر الحـزب الديمقراطـي في مجلس النـواب والشيوخ (وكان الحـزب يشكل الأغلبية آنـذاك) صوت بأكثرية كبيرة في 21 و31 آذار ضد أي مزيد من المساعدات إلى فيتنام الجنوبية.

فهـم ثيـو أنه بموارده المتناقصة لـن يكون بوسعه الدفاع عـن المساحة الكلية لبلـده المحاصر وأمر بانسحـاب استراتيجـي مـن «الأراضي المرتفعـة المركزية»، وفي الوقـت نفسه أعاد نشـر الفرقة الأولى المحمولـة جواً من الحـدود الشمالية إلى المناطـق المحيطة بواتانغ ـ كلا التحركين يبـدأ بعد عدة أيام أي فـي 16 آذار. كان قصـر ثيو «ايجاد» متراس دفاعي يمكن أن يقام إلى أن ينتخب كونغرس أكثر تعاطفاً عام 1976.

عبرت حركة ثيو عن إحساس جيد، باعتبار أنه تمرين عسكري في كلية حربية. ولكن في شروط الوقائع الفيتنامية ربما قادت إلى كارثة. فالقيام بها بدون استعداد أو توضيح مفصل من هدنة الأركان المشتركة فـي سايغون كان لابـد أن ينفذ «الانسحاب الاستراتيجي» على طريق واحد ـــ الممر 7 ب ـ باستعداد سي،

وطريق مليء بالألغام. كان لابد من نشاط هندسي كبير لجعله قابلاً للاستخدام، بما في ذلك إعادة بناء عـدة جسور منهـارة ـ وهي مهمات لم تكن فرق فيتنام الجنوبية مهيأة لها بصورة مناسبة. بالإضافة إلى الوحـدات القتالية. والعسكرية كان الطريق المذكورة ممراً لتحشـد المدنيين الهاربين، ذلك أن التابعين إلـى جيش جمهورية فيتنام كانـوا قريبين دوماً من الوحـدات المقاتلة ـ أي من بليكـو، عاصمة «الروابي العاليـة» ومـا إن تسربت كلمة الأمر بالانسحاب حتى شاع الذعر فتلاه هجرة جماعية. ومن أجل مزيد من الفوضـى، شعرت الميليشيات المحلية ومعظمها من قبائل محليـة تدعى مونتاغناردس، بالفزع والفوضى لدى سماعها أنها ستبقى في المؤخرة.

سرعـان ما امتلأ طريـق الهروب الوحيد بما يقدر بـ 60 ألفاً مـن العسكريين و400 ألف مدني، وانهار نظـام توزيع الطعام، وشرع الجنوبيـون الجائعون بنهب القرى على طول الطريـق. وقامت طائرات سلاح الجـو الفيتنامـي الجنوبـي بقصف جيش جمهورية فيتنام عـن طريق الخطـأ، وقتلت كثيـراً من الجنود والملتحقيـن بهم، وقام الفيتناميون الشماليون بمهاجمة هذا الركـب المرتحل. ولم يستطيع الوصول إلى الساحـل إلا فئـات قليلة من الجنود والمدنييـن الفارين، كما تبخرت وتشتت الفـرق التي كانت تدافع عن المرتفعات المركزية.

تتصـدّ الفيتناميون الشماليون أساساً أن يكرسوا موسم التحشد عام 1975 من أجل احتلال الهضاب المركزيـة والقيـام بالمعـارك الحاسمـة عـام 1976 وصولاً إلـى سايغون، فـي غضون بضعـة أيام حقق الفيتناميون الشماليون هدفهم الأول بدون أية خسائر تذكر في الأرواح أو العتاد.

استهدفت الفرق الهضاب المركزية بحيث أتيحت لها الحرية لمهاجمة دانانغ وهيو على طول الشاطىء التـي سرعـان ماحاصروها. وتدفـق اللاجئين من الهضـاب المركزية ابتلع الفرقـة المحمولة جداً والتي انتقلت من الحدود الشمالية وحالت دون أي دفاع قوي لهذه القواعد الاستراتيجية الكبيرة وقد ذكر القائد الفيتنامي الشمالي الجنرال فان تين دونع فيما بعد:

تجاوزت المسألة حدود هذه الحملة ووصلت إلى أجزاء استراتيجية لأول مرة في حرب الهند الصينية، فـي إطار حملة، كان على قوات جيش معاد مجهـز بأسلحة حديثة أن يتخلى عن منطقة استراتيجية مهمة ويفـر تشابك الجمـود في وضع الشرق الأوسط بشكل دقيق مع فترة انهيـار الهضاب المركزية، وهو مالم يتضـح حجمـه الكامل إلا بعد أن عدت إلى واشنطن فـي 23 آذار. إذ كان لابد من التعامل مع الأزمتين في وقت واحد. وسط هذه الفجيعة هزم شعب صديق آخر، الأكراد الذين نؤويهم بشكل صريح، على يد الجيش العراقي الذي أعاد السوفييت تجهيزه مجدداً.

من حسن الحظ شعر المسؤولون بالحاجة إلى التعامل مع الأزمة. فابتداءً من 24 آذار شرع المسؤولون بالسيطـرة علـى الأزمتين المتزامنتين في الهنـد الصينية والشرق الأوسط. سجلـت الأخبار الواردة من

فيتنـام تدفقاً لاينتهي من الكوارث. فقط سقطت المدينـة الملكية القديمة «هيو» في 25 آذار (بعد يومين مـن عودتي مـن الجولة المكوكية)، وسقطت دانانغ في 30 آذار، ومع وجـود مليون لاجىء في دانانغ ونفاد المواد الغذائية، بات مفتاح الأمور في الجزء الشمالي من البلاد ذا جانب إنساني وليس دفاعياً.

ومـع هـذا ولدى اجتماعـات WSAG وجدنـا أنفسنا نواجـه مشـكلات ومشاحنات بيزنطيـة قانونية. فقـد تحـدث بعضنا عن دبابات إنزال مـن السفن للمساعدة في إخلاء اللاجئيـن. وقد حاول بعض خبراء الكرنغرس حـول مـاإذا كان مثل هذا الإجراء يخرق المـادة 7 من اتفاقية باريس التـي تحظر تقديم عتاد عسكـري إلا لتعويض الخسائر ـ وهي فقرة لم يلق الفيتناميون الشماليـون إليها بالاً مطلقاً في أي يوم من الأيام. المسألة الثانية كانت حول ماإذا كان بوسعنا إخلاء أية مجموعة من اللاجئين المذكورين قبل إعلام الكونغرس بموجب قانون الحرب. كانت المسألـة تتطلب، نظراً لأهميتها، قراراً رئاسياً. قال فورد: «أعتقد أننا نبتغي أن نفعل ذلك، وأن نبلغهم، وأن نعلن ذلك على الملأ. وفسرت ذلك بأننا ينبغي أن نفعل ذلك وفق ذلك المنهج. فقدرت أن قدرة فيتنام الجنوبية على البقاء تصل إلى مدة ثلاثة أشهر كحد أعلى.

كان الانهيـار كئيبـاً ومأساوياً. ولكن بالنسبـة لصانعي القرار من بيننـا، كان التحدي الأكبر هو كيف ننجح الآن في الإجلاء الحتمي لستة آلاف جندي أمريكي باقين مع أولئك الفيتناميين الذين كانوا في خطر جـراء تحالفهم مع الولايات المتحدة. قلت في اجتماع لموظفـي وزارة الخارجية في 8 نيسان: أريد لائحة بفئات الأشخاص. كيف يمكن نقلهم إلى مكان يتم إجلاؤهم اليه، وبأية طريقة، وبأية مشاورات مسبقة مع الحكومة، (ذلك لأن وزارة الخارجية، عن طريق السفير الأمريكي، كانت مسؤولة عن الإخلاء).

مـن دواعـي السخرية أن التخطيـط للإخلاء كان يجري جنبـاً إلى جنب مع جدل داخلـي حول ماإذا كنـا سنطلـب مساعدة عسكرية من أجـل فيتنام الجنوبية في هـذه المرحلة المتأخرة كثيـراً، وكم، فورد وأنـا كنا ندافع عـن مبدأ الاستمرار في مطالبة الكونغرس بمساعـدة إضافية حتى اللحظة الأخيرة، كيف يمكـن التوفيق مابين تقديري لفرص سايغون بالبقاء، والإصرار على خطة الإجلاء، والدفاع المستمر عن أولويات المساعدة لفيتنام الجنوبية؟

غالبيـة وسائـل الإعلام (أحسـب أنه لايوجـد استثناء ذو شأن) كانـت تنادي بالتخلي عـن سايغون، وبالإطاحـة بثيـو، وبانسحاب فوري من فيتنـام. ولم يكن الكونغرس بعيداً كثيراً عـن ذلك. وداخل الإدارة كان مديـر وكالة الاستخبارات المركزية وليام كولبي يعرض صفقـة نتخلى بموجبها عن ثيو مقابل إخلاء الأمريكييـن بدون شروط. وكان طاقـم فورد في البيت الأبيض تواقاً إلـى التساهل مع فيتنام حتى لايلوث الرئاسة بمزيد من التناقضات الفيتنامية.

ولكن أولئك الذين كانوا يجتمعون من بيننا يومياً في البيت الأبيض كانوا يواجهون خيارات حقيقية وليس نظريـة. فكان علينا أن نسحب السـتة آلاف جندي أمريكي الذين مايزالون في فيتنام وأن نحاول مساعدة

عشــرات آلاف الفيتناميين والذين جازفوا بحياتهم مــن أجل التعاون معنا، على مغادرة البلاد. ولكننا لن نكــون قادرين علــى إجلاء أياً من أصدقائنــا الفيتناميين الجنوبين حتى نطيل انسحــاب الأمريكيين، لأن الكونغرس سوف يعمل بالتأكيد على إجلاء آخر أمريكي.

وأي طريقــة نوافق عليهــا كانت تتطلب أن نطلب المساعدة من فيتنام. وفــي اللحظة التي نتخلى فيها عــن ذلك فإن الرعب سيطيح ببلد غير متوافــق. وفي هذه الحالة سوف يحاول الجيش الفيتنامي الجنوبي أن يظهرنــا بمظهــر الخونة. في بداية نيســان قلت لكولبي: على الرغم من أن ثيو مــن المحتمل أن يسقط قريبــاً، فإننــا إذا عرضنا عليه أية صفقة فسوف تطالب هانــوي على الفور برأس خليفته حتى تدمر البنية السياسيــة للفيتناميين الجنوبيين بكاملها. (وهذا ماحدث بالفعل في 3 نيسان إذ أكدت وثيقة صادرة عن لجنــة إقليمية في فيتنام الجنوبية هذه النبؤة، تحدثت عن عروض مختلفة لحكومة ثلاثية، الهدف الوحيد لنضال هانوي، وفقاً لحركة السلام الأمريكية عزل حكومة فيتنام الجنوبية.

كنــا بحاجة إلى وقت لترتيب إجــلاء الأمريكيين والفيتناميين الذين التزمنا معهــم التزاماً أخلاقياً. وتلبية طلب المساعدة كانت الطريقة الوحيدة للمحافظة على معنويات أولئك الفيتناميين الذين مايزالون مستعدين للقتال من أجل نهاية مشرفة.

ولكــن أي مستوى مــن المساعدة ينبغي أن يكون؟ فقد كانت توصيتــي أن نقترح رقماً يتعلق بالحاجات الفعليــة لفيتنــام الجنوبية. وفي 28 كانون الثاني كنا قد طلبنا معونــة تكميلية قدرها 300 مليون دولار كان السيناتور جون ستينيس قد وعدنا بها. وحتى عندئذ لم تكن لهذا الرقم علاقة بالحاجة، ولكن فيتنام على الأقــل كانت هادئة نسبيــاً. أما ذلك المبلغ فما عاد كافياً للتعامل مع الكارثــة التي كانت تحيط بنا. ووافق فــورد وأرســل الجنرال فريد ســن. ويياند، رئيس أركان الجيشــ الذي كان يقود فرقــة الفرسان الأولى في فيتنام، إلى سايغون ليخرج بتقدير واقعي.

وكان فــورد خــلال هذا الجدل يقف منتصباً وهو لا يستطيع أن يصــدق، وكان لا يستطيع، بكل بساطة أن يتصــور التخلي عن أولئــك الذين لبثوا على مدى عقدين من الزمان يجازفــون بأرواحهم بالتعاون من أجل ما ظل خمسة من الرؤساء من كلا الحزبين الأمريكيين يعلنون أنه ضروري لأمن العالم الحر. وبذلت أقصــى ما فــي وسعي لضمان أن يتوافر لهذا الرجل الشجاع والمحترم أوسع نطاق من الخيارات المتوفرة وحرصــت حرصــاً شديداً على توفيــر مخرجاً لفورد. وفــي 27 آذار، حين أصبح مــدى الهزيمة العسكرية الكاملــة واضحــاً جلياً، اختتمت بياناً إعلاميــاً في المكتب البيضاوي حول طلبــات سايغون العسكرية على النحو التالي:

أقول هذا بقلب ينزف دماً ـ ولكن قد يترتب عليك أن تضع فيتنام وراء ظهرك ولا تمزق صفوف البلاد مــرة أخرى. لقد كانت اتفاقيات فيتنام ترتكز على أمريــن: تهديدنا بالدعم العسكري واستمرار المعونة.

وفـي تمـوز 1973 أوقفنا دعمنا كما عمدنا أيضاً إلى قطـع المعونة حتى وصلت إلى ما هو دون الحد الأدنى الذي كانوا في حاجة إليه. والآن نواجه موقفاً يائساً.

ومـا كان فورد ليسمع بهذا، قائلا: إن هذا سيكـون مناقضاً لطبعي». وكان جوابه هو الجواب ذاته إلى حـد بعيـد في 3 نيسان عندما ذكرته بـأن لديه خياراً في ألا يفعل شيئاً. وفـي 9 نيسان، أي في اليوم الذي سبق اليوم الذي طلب فيه فورد بصورة رسمية، مبالغ إضافية لفيتنام، لفتُّ انتباهه إلى أن وجهة نظر رون نيسيـن هـي أن الرئيس ينبغي له أن يقـود أمريكا إلى الخروج من فيتنام، لا إلـى الدخول فيها، ورد فورد قائلاً: «هذه الطريقة ليست بالطريقة التي أدين بها.. وما كنت لأستطيع فعل هذا».

وفي مؤتمر صحفي، في 3 نيسان أصر فورد على طلبه كلاً من المعونة الاقتصادية والعسكرية لجنوب فيتنام، واتهم الفيتناميين الشماليين بالانتهاكات الصارخة لاتفاقية باريس كما انتقد الكونغرس لخفضه طلباتنـا الخاصة بالمعونـة لفيتنام الجنوبية وأمر بجسـر جوي للطوارئ من أجل ألفيـن من الفيتناميين اليتامـى. ورفض فورد مطالبة الصحفييـن العبثية بطرح ثيو جانباً قائلاً: «لأنني لا أعتقد أن من حقي أن آمر رئيس دولة انتخبه الشعب بترك منصبه»:[2]

سـوف نقـف إلى جانب حلفائنا وأنا أنذر على وجه التحديد أي خصـم من خصومنا بأن لا يشعر، في أي ظـرف مـن الظروف بأن مأساة فيتنام تمثل إشارة إلى أن الشعب الأمريكي قد فقد إرادته أو رغبته في الوقوف إلى جانب الحرية في أي مكان من العالم.[3]

وكانت هذه المواقف مواقف غير شعبية إلى حد بعيد وقد طرحها فورد بهدوء، ومن باب التلطيف على الأغلب، كأن لم يكن هناك أي نهج آخر يمكن تصوره من أجل المصلحة القومية.

وكان رد فعـل وسائل الإعلام رداً يمكن التنبؤ به. فقـد اتهمته «النيويورك تايمز» بالارتباك[4] واتهمته «الواشنطن بوست» بالاشتغال بلعبة جمع الأصداف على الشاطئ[5]. وبأسلوب أكثر ترفُّقاً و إحساناً طالبت صحيفـة «لوس أنجلوس تايمز» بـ «اتجـاه جديد» حددته بأنه قطـع للمعونة العسكرية للهنـد الصينية.[6] وعندمـا كـررت حجج فورد في مؤتمر صحفي في 5 نيسان لقيت الاستقبـال ذاته منعكساً في أسئلة كهذه: كيـف نستطيع أن نتوقع تعاوناً من قبل الكونغرس فـي الوقت الذي نلوم فيه الكونغرس على ما يحدث؟ وما الـذي جعلنـا نظـن أن أي مبلغ إضافي من المال ستكـون له جدوى حسنة؟ ألم يكن هـذا كله خطيئة ثيو؟ وكيف تهيأ أن نوقع على اتفاقية باريس ونحن نتوقع أي ناتج آخر؟ وكان السؤال الأكثر إصراراً على الإطلاق قولهم: ما هي طبيعة التزامنا تجاه جنوبي فيتنام؟

ولبثـت أعيـد وأكرر ما كنت أقوله على مـدى شهور. لقد كان طلبنا يرتكز علـى التزامات أخلاقية، لا قانونية.

مـن المسائـل الأخلاقية البالغة الأهمية بالنسبـة للولايات المتحدة مسألة أن يقـال للشعب الذي ظل يقاتـل على مدى الكثير من السنيـن وبتشجيع منها، في ساعة الشدة، من قبـل الولايات المتحدة: إنه في الوقت الذي يريد أن يواصل القتال لن تبادر الولايات المتحدة إلى مساعدته بعد هذا[7].

وأنهيت كلامي بهذا النداء:

لقـد سمعنـي كثير منكم وأنا أطلعكم على هذا الموضوع على مـدى ست سنوات حتى الآن، وأعتقد أنه ما من أحد منكم سمعني قط أتشك له في جدوى العذاب والكدح، وهم الذي أحتمله أولئك الذين عارضوا الحـرب. وكل مـا أستطيع أن أطلبه هو أن هؤلاء الذين كانوا ينزعون إلى الانتقاد، من بينكم ينبغي لهم أن يظـل فـي أذهانهم أن هناك مأساة إنسانية جسيمة يراها أولئـك الذين هم في الإدارة كما أنهم يخدمون أفضل المصالح المتعلقة بالسلام العالمي.[8]

ولـم يكـن في المسألة جدوى، وكان مـن بواعث أسفنا الهائل أن السناتور هنـري جاكسون انضم إلى الهجـوم مـرة أخرى، وعلى الرغم من عـدم رضانا عن السياسة القائمة بين الشـرق والغرب فقد واصلنا النظـر إليـه على أنه حليف في المعركـة الجيوبوليتيكية مـع الشيوعية، ولكن في 8 نيسـان كرر معارضته السابقـة للمعونة الإضافية لفيتنـام على أساس أن الطلب يرتكز على اتفاقيات سرية، وأشكال من التوافق والتفاهـم الخطـي. كان كلامه يوحي بأنني كتمتها عـن الرئيس فورد بطريقة مـا[9]. وكانت التهمة باطلة بطلاناً يمكن إقامة الدليل عليه، على أنها ألقت الضوء، خارج إطار الموضوع المباشر، على المرارة التي باتت مناقشتنا الوطنية مغمورة بها. وكان الافتراض الذي يفيد أن وزير الخارجية يمكن أن يكتم اتفاقيات معينـة عن رئيسه، أقصوصة، مثلما كان ضرباً من العبـث، وقد مثل مؤشراً ترد جديد في جدلنا الداخلي ولـم يحدث في أي يوم من الأيام أن جعلت أنا، ولا فورد، نداءنا مرتكزاً على وجود التزامات رسمية. وكان كل مـا ندعي الحق فيه بصـدد فيتنام المعرضة للهجوم هو التزام أخلاقـي ضمني، ولم يكن هناك أدنى قدر من سخرية سكرات الاحتضار في فيتنام يكمن في أنَّ أولئك الذين كانوا يتعرضون في العادة للهجوم بسبـب السياسة الواقعيـة، كانوا يصرون على شـرف الالتزامات وأخلاقيتها، بينمـا كان نقادهم، الذين كانوا في العادة يتمتعون بحرية كبيرة في الادعاءات الأخلاقية، يتصرفون كالمحامين الذين يبحثون عن فقرات في العقد تتيح لهم مهرباً.

وأبلغ الرئيس وييانـد الرئيس فورد في بالم سبرنغز بالوضع العسكري في 5 نيسان، وقال بأنه أخذ في التدهور، ووصف الخيارات أمامنا على أنها كما يلي: أما المبلغ التكميلي المكون من 300 مليون دولار فلن يعوضـ المستهلـكات إلا تعويضاً جزئياً، ولن يعوض عن القـدر الهائل من المعدات التي فقدت في كوارث الأسابيع القليلة الماضية. وقال: إن جيش الفيتناميين الجنوبيين لم يتلقَّ في الحقيقة تعويضاً عن المعدات علـى مـدى عامين، وقال وييَّاند محتجاً: ولذلك ما عاد المبلغ التكميلـي الأصلي كافياً. وبدلاً من ذلك رفع

لائحــة بما سوف تمس الحاجة إليه لإعادة تشكيل بعض الوحدات التي دمرتها المعارك الأخيرة. وقال: إن الحد الأدنى الذي يعد معقولاً، يبلغ 722 مليون دولار.

وعلى الصعيد الأول كان هذا من المحال، إذ كان من المرجح أن تنهار فيتنام قبل أن يكون من الممكن أن تصل أية معدات إلى هناك. وفي الوقت ذاته، إذا كان لنا أن نرفع أية أرقام ففي وسعنا أن نختار رقماً مرتبطـاً ببرنامـج لـه أساس ذهني، وكان هـذا هو أدنى مبلغ يمكن بـه إنقاذ ما يظل مـن الممكن إنقاذه فالمبلغ الأكثر احتمالاً لكي يُمنح الفيتناميين الجنوبيين هو الذخيرة التي هي تحت أيديهم ليكسبوا بعض الوقـت للإجـلاء. وإذا انهارت فيتنام قبل أن يمكن وصول أية معونة فسنكون قد حررنا أنفسنا، على الأقل من التزاماتنا الأخلاقية. وقبل فورد الرقم الذي عرضه وييـاند.

ومـرَّ اجتمـاع لمجلس الأمن القومي في 9 نيسان بالتطور الذهني المماثل من حيث الجوهر إذ واجهت فـورد ثلاثـة خيـارات: ألا يطلب مبالـغ، أو يتمسك برقم 300 مليـون دولار الذي كان مطروحـاً قبل ثلاثة أشهـر، أو أن يسانـد توصيـة وييَّاند بمبلـغ 722 مليون دولار. واتبعـت المناقشة خطوطـاً حسنة التركيز، ووافق الحاضرون جميعاً على أن قطع المبالغ سوف يضمن ضياع أي نفوذ أو تأثير على الأحداث. وأوصى شليزنغـر بالتمسك بمبلـغ 300 مليون دولار، باعتبـار أن المسألة لن تستحق الشجار مـع الكونغرس حول الفرق، بالنظر إلى الانهيار العسكري الوشيك في فيتنام، وساندت رقم وييـاند لأن مبلغ الثلاث مئة مليون دولار مـع تجاهل كـوارث الشهور الأخيرة، سيقتصر علـى بلوغ حد الكفاية من أجـل التسليم المستحسن بالهزيمـة، ومع افتراض الانحلال المطرد في وضع فيتنـام الجنوبية، من الممكن ألا تشكل ما هية الرقم الـذي يقع عليه الاختيار أي فرق عملـي، بل كان المهم هو الكيفية التي سيكون عليها شعورنا نحن أنفسنا، بسلوكنا، بعد ذلك.

وأعلن فورد قراره على مجلس الأمن القومي في نهاية الاجتماع، بشرح أطول، وأكثر بلاغة مما كانت عليه عادته :

سـوف أطلب 722 مليون دولار، لأننـا نستطيع أن نبرره. وعلى الأقل فسيكـون السجل واضحاً، وسوف أطلـب أن يتـم هذا في تاريخ مؤكد، ربما في الأول من أيـار على الرغم من أنهس سيظل من الواجب علينا أن نقرر ذلك.

وسـوف أطلـب معونة إنسانية، ولكن ليس عن طريق الأمم المتحـدة. أما الناحية الثالثة فسوف أطلب السلطة التي أنا في حاجة إليها لإجلاء الأمريكيين والآخرين الذين نلتزم تجاههم.

وأنـا لا أستبعـد، عند نقطة معينة، أن أتـرك الفيتناميين الشماليين يعلمـون أن أي تدخل في جهودنا الإنسانية سيقابل بإجراءات قوية، ومن أجل هذا أريد المرونة.

وستكون هذه كلمة مُحكمة، بطريقتي الخاصة، لا بطريقة تشرشل، ربما ولن تكون شيئاً زائفاً.

وأنا أعتقد، يا جيم (شليزنغر) أن لديك تحفظات. ولكن هذا هو القرار وستكون هذه هي مجموعتي الوحيدة التي تعرف هذا. لقد أنفقت كثيراً من الوقت في هذا، الآن، وحتى في وقت أسبق، بالعودة إلى عام 1952، وأعتقد أن سياستنا، إذا عدنا بها إلى الرئيسين ترومن و آيزنهاور، هي السياسة الصحيحة. لم ننفذها دوماً بشكل صحيح وربما ارتكبنا الكثير من الأخطاء، غير أنها كانت السياسة الصحيحة.

وفي 10 نيسان خاطب الرئيس جلسة مشتركة للكونغرس، وفي خطبة حازمة، ليست بالاعتذارية، صادق على المقترحات التي حملت أسلافه على توريط الولايات المتحدة في الهند الصينية، وتتبع تطور اتفاقية باريس، وأكد أن الولايات المتحدة لم تزود حليفها بالمعونة الكافية، ولاعززت الاتفاقية. وختم فورد كلامه بإنذار الكونغرس في صدد بعض أشكال التهجم على سياستنا الخارجية:

وإن المصالح القومية للولايات المتحدة، وقضية الاستقرار في العالم تقتضيان منا أن نواصل منح المعونة العسكرية والإنسانية معاً للفيتناميين الجنوبيين... ولا نستطيع في هذه أن نتخلى عن أصدقائنا بينما يتولى خصومنا دعم أصدقائهم وتشجيعهم، ولا نستطيع أن نفكك دفاعاتنا أو دبلوماسيتنا، أو مقدرتنا الاستخباراتية بينما يعمد الآخرون إلى زيادة دفاعاتهم ومقدراتهم، وتدعيمها.[10]

وفي اليوم التالي لخصت وجهة نظري في صدد ما كان معرضاً للمجازفة في حديث مفعم بالحيوية على هيئة العاملين العليا في وزارة الخارجية:

لو أن الرئيس قال في الليلة الفائتة ما يقوله الكثيرون جداً من رجال الكونغرس إنه كان من الواجب أن يكون قاله ـ أي لو أنه قال: «لقد فعلنا ما فيه الكفاية، وما عاد بوسعنا، بعد هذا أن نمنح معونة عسكرية»، فأنا أعتقد أن فيليب حبيب (السكرتير المساعد لشرقي آسيا) سيوافق على أنه سيكون هناك انهيار نهائي عَمائي شامل، لا يمكن السيطرة عليه، في سايغون، بدءاً من هذا الصباح. ومن الممكن، على النحو ذاته تماماً، أن يسأل عما هو صائب في هذه المسألة، لأن المعارضة في الكابيتول لا تتعلق برقم بل تتعلق بالمبدأ..

وهذا الشيء في طريقه الآن إلى أن يتخذ مساره، ومساره شيء يمكن التنبؤ به بدرجة معقولة. أما ما نحاول عمله الآن فهو أن نتدبر المسألة بكرامة، وأن نحافظ على أساس نستطيع أن نوجه السياسة الخارجية من أجلها، ويمكن للشعب، في إطارها أن يكون له بعض الثقة فينا..

ولسنا في صدد اتهام أي امرئ بأنه كان مخطئاً، ولا رغبة لدي، عندما تكون هذه المسألة قد طويت صفحاتها، في تحويلها إلى وسيلة للثأر، والتطواف بها في طول البلاد وعرضها، وأعتقد أن الناس سيسوء شعورهم عندما تنتهي المسألة. غير أن هذه الوزارة.. سوف تصمد في سبيل ما هو حق، وليس بين أيدينا خيار آخر في العالم.

المناقشة الدائرة حول الإجلاء

كان هذا بعيداً عن الحكمة التقليدية، سواءٌ في الكونغرس أم في وسائل الإعلام. فقد سألونا، بأغلبيتهم الكبيرة، أن نوجه ضربة الرحمة إلى بلد ظللنا مرتبطين به على مدى ما يزيد على العقدين.

أما في إطار الإدارة فقد حولت كلمة السيد الرئيس هذه المجادلات من مسألة هل ينبغي طلب المساعدة، وكيف ينبغي التعامل مع الانهيار الذي يزداد رجحاناً على نحو مطرد في جنوبي فيتنام. وأما في مجال الممارسة فقد انحدر هذا على مجرد مسألة مقدار السرعة في الإخلاء ومسألة نوعية الاهتمام الذي نكنّه للفيتناميين الذين كانوا معنا.

وكان البنتاغون يريد الإخلاء بأسرع ما يمكن. وكان يلجأ، كما حدث في كمبوديا، إلى صياغة أحاديث ملفقة يومية بغية تسريع العملية، وكان ينطوي على الرغبة الكافية في إخلاء بعض الفيتناميين، ما لم يؤد هذا إلى ابطاء عملية إخراج كل الأمريكيين بأسرع وتيرة ممكنة. ولم يكن البنتاغون يجد فائدة في المجازفة بالتسبب في حدوث إصابات أو التعرض لاستفسارات من قبل الكونغرس، أو التعرض للحوادث من جراء إطالة أمد عملية الإجلاء. ولما كان البنتاغون بارعاً في الملاكمة الوحشية ذات السمة البيروقراطية فقد أنشأ سجلاً يقصد به إثبات أن الأمريكيين لم يكن يجري إجلائهم لأسباب كان يعدها سياسية بالمعنى الدقيق، بالمعدل الذي كانت استطاعة الجسر الجوي الموجود خليقة أن تسمح به. وكان يُجري إرسال مذكرات التحذير أو الاتصالات الهاتفية من أجل أن يصل تأثيرها إلى مكتبي. وكانت عمليات النقل بطائرات C ـ141 تغادر سايغون كل يوم بمقاعد خالية وموثقة توثيقاً حسناً لإثبات أنه إذا كان هناك أي إصابات فسيُلقى اللوم في ذلك على أناس سواهم ـ أي على السفير مارتن أو عليّ.

وكان غراهام مارتن يقف على طرف النقيض الآخر. وكان التقليد أن يكون تدبير عمليات الإخلاء مسؤولية وزارة الخارجية، على أن يقوم السفير بدور القائد الميداني وكان مارتن قائداً عاماً بفطرته، وكان يقوم لدى وزارة الخارجية بدور المكافئ لدوغلاس ماك آرثر، وكانت له وجهات نظره الخاصة حول المعدل الأمثل للإخلاء، وعدم إيلاء الاهتمام الزائد عن الحاجة، على وجه الدقة، للتوجيهات الواردة من واشنطن البعيدة، وكان يلتزم التزام المتعاطف بحرارة تجاه الناس الذين سنكون عما قريب مضطرين إلى التخلي عنهم. وكان مارتن يرى واجبه في المباعدة بين عمليات سحب الأمريكيين، أو في إفساح أطول فترة ممكنة من الزمن لكي يُترك ما يكفي من الحضور الأمريكي، لتبرير إنقاذ الأمريكيين. ولما كان مارتن يعتقد أن الرعب في سايغون يمثل باعثاً للقلق أكبر من قدرات هانوي، فقد كان يناضل من أجل وتيرة للإخلاء أبطأ كثيراً حتى مما كان فورد وسكوكرافت أو صقور الإدارة يحسبونه ملائماً. وكان يُغرقنا بطوفان من البرقيات كان فحواها أنني سأكون الرجل الذي سيعد مسؤولاً إذا خلفنا وراءنا أي لاجئين محتملين من دون أن نضطر إلى ذلك. ولما كانت الوزارة تتعرض للإزعاج والمضايقة من قبل البنتاغون

لأننـا كنا ننفذ الإخلاء ببـطء مفرط، ومن قبل مارتن لأننا كنا نغادر بسرعـة مفرطة، فقد تبين أن الحد الوسط أكثر انطواءً على المخاطر من أن يكون من ذهب.

أما موقفي فكان أقرب كثيراً إلى موقف مارتن منه إلى موقف البنتاغون، أما النقطة التي كنت أخالف السفيـر فيهـا فكانت في تقديرات كل منا لآمال جنوبي فيتنام في البقاء ـ ومن ثم للوقت المتاح للإخلاء. وحتـى بعد انهيار المرتفعـات الوسطى كان مارتن يجادل محتجاً بأن من الممكن إنشاء معقل قابل للحياة حـول نهـا ترانغ وسايغون والدلتا ـ وتلـك فرضية كان يجادل فيها بعنفوان وحُمَيّـة، فيليب حبيب، الرجل الـذي لـم يكن خجولاً ولامتواضعـاً، أيضاً، وعندما بات انهيـار سايغون أكثر وضوحاً مـن أن يرغب المرء فـي ابتعاده، احتجَّ مارتن بأن في وسعنا أن نتدبر أمـر نقل السلطة في سايغون عن طريق حكومة ائتلافية بصـورة متدرجـة بما يكفي للحفاظ على جسـر جوي للاجئين على مدى من الأسابيـع أكثر مما كنت أرى إمكانيـة الوصـول إليه عملياً. ولما كنـت أقف في مواجهة لي دوك ثو على مـدى كل هذه السنين فقد كنت علـى يقين أنه لـن يقبل أبداً بتحويل تدريجي للسلطة، أو بأي بنية سياسية مستقلة في سايغون، مهما كنت مؤقتة ـ حتى لو كانت حكومة شيوعية مستقلة. وما كانت هانوي لتنتهز الفرصة فرصاً من أجل ظهور نزعة تيتوية في جنوبي فيتنام.

ومهمـا يكـن من كثرة تعاطفي مـع أهداف مارتن، فقـد كان لابـد لسياسيتنا أن تُدْخِل فـي حسبانها تقديـرات الاستخبـارات المتشائمـة على نحو مطـرد الزيادة، ومؤداهـا أن فيتنام الجنوبيـة لن تستطيع الصمود إلا لمدة أسابيع.

ولذلـك تبنَّيـت، بموافقة الرئيـس، الخطة التالية فقد حددنـا أولاً مقدرة جسرنا الجـوي القائم على الطائـرات العمودية لمدة يوم واحد، وتبين أنها بما يقارب 1250. وعلى ذلك الأساس أمرت مارتن في 18 نيسـان (أي بعد أسبـوع من خطاب الرئيس) بخفض عدد الأمريكيين إلـى ذلك المستوى في 22 نيسان. وسـوف يتـم إجلاء هـذه المجموعة الأخيـرة من الأمريكييـن مع أكبر عـدد ممن تبقى مـن الفيتناميين الجنوبييـن، مـن أراضـي السفارة في اللحظـة التي كان فيها مطـار سايغون (تان سون نهـوت) يتهدده الخطر. وأثناء فترة الاعتراض والتدخل سوف يُبذل جهد أقصى لإجلاء الفيتناميين، مع إعطاء الأفضلية لأولئك الذين عرضوا أنفسهم للخطر من أجلنا.

وكانـت ضغـوط مجلـس الشيوخ من أجـل انسحاب سريع من فيتنـام تتصاعد في كل يـوم، وفي 14 نيسان دعت لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، بأكملها، الرئيس إلى قاعة مجلس الوزراء (cabnet 6oom)، وهـذه هـي المرة الأولـى التي يحدث هذا فيها منذ أيـام وودرو ويلسون. وألقينـا، أنا و شليزنغر ببيانين إعلاميين متطابقين تقريباً حول الوضع العسكري وآمال سايغون، وأجاب أعضاء مجلس الشيوخ المتميزيـن بأنهـم لم يأتوا ليناقشوا استراتيجية فيتنام بل لتسريع إجلاء الأمريكيين وللتأكيد من أنهم لا

يؤخرون إجلاءهم لإنقاذ الفيتناميين. وكانوا يرون أن إعطاء الأولوية لإنقاذ الفيتناميين الجنوبيين سوف يورطنا من الناحية العسكرية توريطاً شاملاً مرة أخرى. ويسرد فورد القصة في مذكراته قائلاً:

كانت الرسالة واضحة: اخرجوا بسرعة. «وسوف أعطيكم مبالغ ضخمة للإجلاء» وقال جاكوب جافيتس، السيناتور من نيويورك «ولكن لن تحصلوا على درهم واحد من أجل المعونة العسكرية. ورأى السناتور عن ولاية إيداهو، فرانك تشيرش، أن هناك مشكلات حادة « يمكن أن تورطنا في حرب واسعة النطاق» إذا حاولنا إجلاء كل الفيتناميين الجنوبيين الذين كانوا مواليين لنا. وردد جوزيف بيدين السيناتور عن ديلاوير عبارة مشابهة قائلا : «سوف أصوت لأي مبلغ من أجل إخراج الأمريكيين، ولا أريد أن يختلط هذا بإخراج الفيتناميين».

وكان جواب الرئيس مهذباً من دون تراجع:

صدقوني نحن في حاجة إلى كسب الوقت ولو لكسب أيام قليلة، وأشكركم لزيارتكم لقد كانت لنا مناقشة طيبة غير أن القرار هو مسؤوليتي وسوف أتقبل النتائج[12]

البحث عن حل سياسي

كان لدى المعلقين ومجلس الشيوخ، بالطبع، خيار آخر: ألا وهو «حلُّهم السياسي» العزيز الغالي، غير أن الطرف الذي يواجه الهزيمة الشاملة ليس لديه شيء يقدمه للخصم، وليس لديه ما يزيد كثيراً على المجازفة بوسطاء محتملين. وأظهرت فرنسا اهتماماً شديداً بأن تصبح فاعلةً. ولكن حتى بينما كنا نناقش بأسلوب مهذب مشروعات فرنسية مختلفة لاقتسام جنوبي فيتنام قررنا أن مسلكهم هو الأقرب ــ كما كان ذلك في حالة كمبوديا ـ إلى أن يكون انعكاساً لحنين إلى الماضي يتصل بالنفوذ الاستعماري المفقود، منه إلى أن يكون تقديراً للكيفية التي يتم بها إنهاء المأساة الفيتنامية.

وكان التحرك «السياسي» الوحيد الذي بوسعنا أن نفكر فيه هو التوجه نحو موسكو التي ظلت تحافظ على إسهام في العلاقة مع أمريكا، على الرغم من انهيار التعرفة التجارية (t6ade bill) وكان بريجينيف ما زال يتوق توقاً شديداً إلى مؤتمر قمة حول الأمن الأوربي، كان يتابعه على مدى ثلاث سنين، وكان الآن قد تم التخطيط له لكي ينعقد انعقاداً تجريبياً مؤقتاً في أواخر تموز. وأخبرت اجتماع الهيئة العليا اليومي للعاملين في وزارة الخارجية في 18 نيسان بأننا سنتوجه إلى الاتحاد السوفييتي على الرغم من أنني كنت أقدر فرص قيامه بشيء ما بناءً في هذا الصدد بنسبة واحد بالألف. لقد كنا في الموقع الذي ينطوي على الإذلال الذي لخصه المؤرخ البريطاني إدوارد جيبون: وهو أن الإقناع هو ملاذ الضعيف والضعيف قلما يستطيع أن يقنع على أن ما جعل موقفنا باعثاً للغيظ على وجه الخصوص هو أنه قد تم إضعافنا باختيارنا لا بحكم الضرورة.

وفـي 19 نيســان سلمت «مذكـرة شفهية» من فـورد إلى بريجينيـف عن طريق دوبرينيـن (والمذكرة الشفويـة وثيقـة خطية تتمتع بالوضع ذاته الـذي تتمتع به المحادثة الشفهية غير أنهـا مدونة ابتغاء للدقة والتأكيد) وقد قررت المذكرة أن الحاجة تمس في فيتنام إلى وقف إطلاق النار لإنجاز «إجلاء المواطنين الأمريكيين والمواطنيـن الفيتناميين الجنوبيين الذين كان لدينا التزام مباشر خصوصي تجاههم» وكنا نتوجـه نحو موسكو، ولا نقول ذلك مـن دون لمسة تهديد، لأن مما يدخل في إطار مصلحتنا المتبادلة على المـدى الطويل إنهـاء الموقف القائم بطريقة لا تهـدد العلاقات السوفييتية الأمريكيـة أو تؤثر في موقف الشعب الأمريكي من المشكلات الدولية الأخرى».

ولتقديـم صورة أكثر واقعية عن هـذا النداء المبتذل المكرر في جوهره، أكدنـا استعدادنا «لمناقشة الظروف السياسية الخاصة التي يمكن أن تجعل هذا (أي وقف إطلاق النار) ممكناً» وبعبارة أخرى، تغيراً في الموقف السياسي في سايغون وقد مارسنا الخداع في صدد العواقب الخطيرة لهجوم على المجاملات الجوية وعلى طائرات الركاب. على الرغم من أن مراقباً خبيراً متضلعاً في مناقشات الكونغرس الأمريكي مثل دوبرينين ولم يكن من المرجح أن يحمل ذلك التهديد على محمل الخطورة الكبيرة.

وبينما كنا في انتظار الجواب السوفييتي أشار مارتن في 20 نيسان إلى ثيو قائلاً: إن الرئيس الفيتنامي الجنوبـي يمكن أن يفكر بالاستقالـة. وزعم مارتن أنه يتحدث بصفته الشخصيـة على الرغم من أن هذا المسلـك كانـت قد تمت الموافقة عليه مـن قبل فورد وتم التنسيق من أجله مـع مكتبي في البيت الأبيض. ولـم تكـن لدي أوهام بصدد ما يمكن أن يكون عليه الجـواب الفيتنامي الشمالي على خطوة كهذه غير أني أذعنـت علـى أساس الأمل الواهي، بأن توجهنا يمكن أن يؤدي إلـى مفاوضات تعطينا أياماً إضافية قلائل لإجـلاء أصدقائنا، ورد ثيو ببرودة أقرب إلى أن تكون جليدية قائلاً لمارتن: إنه سوف يفعل ما هو الأفضل لصالـح بلاده. وأنهى مارتن تقريره لواشنطـن بهذه الملاحظة الحادة اللاذعة: «ذهبت إلى بيتي وقرأت «الديلـي نيوز دايجستس» من واشنطن وأخذت حماماً وفركت جلدي بقسوة بالغة بأقوى صابون استطعت أن أعثر عليه، فلم يسعفني كثيراً». وكان فورد وسكو وكرفت يشعران الشعور ذاته.

وكان شعـور البيت الأبيض بوجوب الاستعجـال في إجلاء أكبر عدد ممكن من الفيتناميين لم يلفت حتى الآن نظر وزارة العدل التي رفضت منح الإعفاءات من متطلبات تأشيرة الدخول.

وقـد يبـدو من الغريب لأولئك الذيـن لا يعرفون واشنطن أن الرئيس يمكـن أن يكون في وضع الملتزم بخوض معارك مريرة مع مجلس الوزراء حول استعـداده «لإطلاق سراح مشروط» ـ (extend pa6ole) ـ وهنا هو المصطلح الفني الذي يعبر عن الإعفاء من متطلبات التأشيرة. وهذا ما كان يدخل ضمن سلطات الفـرع التنفيذي وأخيراً، وفـي 22 نيسان، وافقت وزارة العدل، بموجب قـرار اللجنة القضائية في مجلس الشيـوخ، علـى رفع القيود لعدد يصل إلى 130000 لاجئ من الهنـد الصينية، ومعهم خمسون ألفاً من فئة ذوي الخطورة العالية، وكان آخر استثناء كهذا قد حدث في عام 1960 لصالح لاجئي كوبا.

وبينمـا كان الكثير من رؤسائهم في واشنطن مشغولين بتحويل المسؤولية إلى طرف آخر، أقدم اثنان ممن موظفي مصلحة الأجانب ذوي المرتبة الأدنى – هما ليونيل روز نبلات وكريغ جونستون – سبقت لهما الخدمـة في فيتنام على عمل بالاعتماد على نفسيهما لتبديد المخاوف من المعاناة هناك. ففي 20 نيسان تـركا وظيفتيهمـا في واشنطن مـن دون إذن، وبعد أن سافرا على نفقتهما وبجـوازي سفر نظاميين (غير دبلوماسييـن)، وصـلا إلى سايغون وساعدا بعض الفيتناميين الذين سبق أن عملـوا معهم، على الهرب. وكان هـذا خرقـاً فاضحـاً لنظام دائـرة الأجانب ولتنظيمات ولوائـح وزارة الخارجية التـي لا يعرف أحد مـدى كثرتها، وثارت ثائرة الوسط البيروقراطي في وزارة الخارجية وأوصوا بعقوبات، تتراوح بين الطرد والتوبيـخ الرسمي الشديد، وكانت خليقة أن تفسد المسيرة المهنيـة لروز نبلات وجونستون، وعندما عاد إلـى واشنطـن بعد أسبوعين أوغرت على لاري إيغلبرغر الذي كان حينئـذ مساعداً تحت تصرف سكرتير الدولة للإدارة ليطلعهما على قانون الإخلاء بالنظام ثم يأتي بهما إلى مكتبي وبعد أن صدرت بعض أشكال الحلبـة الشكليـة المعبرة عن عدم الموافقـة، قلت: «لم يكن هنـاك إلا القليل، فما نستطيـع أن نباهي به فـي هذه الشهـور الأخيرة. غير أنكما اسبغتما رداء الفضل على بلديكمـا وعلى دائرة الأجانب». ولم يتخذ إجراءٌ تأديبي، وبعد عام عملت على أن يحصل كل منهما على جائزة الشرف العليا لوزارة الخارجية. وظل جونستـون في دائرة الأجانب حيـث أصبح فيما بعد سفيراً لدى الجزائر أمـا روز نبلات فقد كرس حياته ومسيرته المهنية لمنظمات غير الحكومية لمساعدة اللاجئين.

وفـي مسـاء 21 نيسان استقال نجوين فـان ثيو بعد أن ألقـى كلمة مريرة وبخ فيهـا الولايات المتحدة توبيخـاً شديـداً لتقصيرهـا في أحد أمرين: إمـا لفرضها اتفاقيـة باريس وإما لمد أجـل المعونة المادية الموعودة لجنوبي فيتنام، وهللت وسائل الإعلام لرحيله، إذ باتت «الاتفاقية المتفاوض عليها» والمتماشية مـع اتفاقية باريس ممكنـة الآن على الأقل، كما كانت تفيد ذلك حجة واشنطن بوست تايمز، وكأن ثيو كان العقبـة التي تقف في طريق نتيجة متفاوض عليها، المفاوضات شكاوي ثيو من الولايات المتحدة على أنها جعجعـة وتبجح صادران عن سياسي فيتنامي مشـوه السمعة، حاقد ساخط. وفي هذه المرة فحسب كانت وسائل الإعلام الليبرالية سعيدة بالدفاع عن الإدارة.[13]

وكان لدى ثيو كل سبب يحمله على الامتعاض من سلوك أمريكا، وعلى الرغم من أنه كان يكرهني كما لم يكرهني إلا القليل من الناس، في أي يوم من الأيام، لأنه كان يُعدّني مسؤولاً عن المفاوضات التي أنهت الـدور العسكري الأمريكي، فأنا أحترمه كونه وطنيـاً خدم بلاده بشجاعة وشرف. ولم يكن ثيو قط العقبة فـي طريق السلام التي زعم النقـاد المناوئون للحرب أنه وبلاده، على السـواء، يستحقان مصيراً أفضل ولو أني كنت أظن أن من الممكن أن يقطع الكونغرس، بالنتيجة، المعونة عبر حليف محاصر، لما مارست الضغط كما فعلت في المفاوضات النهائية في عام 1972 .

وقـد أثبـت «الحل السياسـي» أنه هش سريـع العطب في كل شَـذْرة منه، كما كانت تشيـر كل خبرتنا وتجربتنا إلى ما سيكون عليه. وهاجم راديو هانوي خلف ثيو، تران. فان صعّدت هانوي مطاليبها، مُصرة على الرحيل الفوري لكل الأفراد الأمريكيين من مدنيين وعسكريين.

وقـد اختُصـرت عشرون سنة من الأمل، والإحباط والنزاع حول فيتنام في هدف واحد، هو إنقاذ أكبر عـدد مـن الضحايا الفيتناميين المحتملين من نتائج التخلي الأمريكي أما نحن، فـي البيت الأبيض فكنا نتشبث بكل رحلة جوية تحمل اللاجئين كأن في وسعها أن تخفف بطريقة ما، من ألم أمريكا المتراكم في حربهـا مـع نفسها. بدأ الجسر الجوي فـي21 نيسان، على مدار الساعة، من سايغـون، بطائرات C ـ 141 فـي النهار وبطائرات C ـ130 في الليل. وعلى مدى الأيـام العشرة التالية ساعد هذا على إنقاذ ما يقارب خمسيـن ألف فيتنامي. (وفرّ ثمانون ألفاً سواهم بوسائـل أخرى). وكان النقاش الوحيد ذو المعنى داخل حكومتنا يدور حول مسألة حتّامَ يمكن الحفاظ على مسيرة الجسر الجوي.

اضمحـل الحافز الشيوعي لمنحنا هذا الوقت الأساسي عندما أصبح أعضاء هيئة العاملين في البيت الأبيـض العقـل الموجه لانتصار بيروقراطي أنموذجي داخل الطريـق الدائري الذي يطوق واشنطن DC. وذلـك أنهـم أدخلوا في الكلمة الرئاسيـة في جامعة تولين في نيـو أورليانز في 23 نيسـان عبارة تفيد أن الحرب قد انتهت على قدر ما يتعلق الأمر بفورد. وجاء نصُّ الفقرة المعنية على النحو التالي:

اليـوم تستطيـع أمريـكا أن تستعيـد روح الكبرياء التي كانت موجـودة قبل فيتنام ولكـن هذا لا يمكن تحقيقـه بإعادة خوض غمار حـرب قد انتهت وطويت صفحتها على قدر ما يتعلق الأمر بأمريكا، وكما أرى ذلـك، فقد حان الوقت لكي نتطلع إلى الأمـام، إلى جدول أعمال للمستقبل، لكي نتحد، ولكي نضمد جراح الأمة، فتستعيد صحتها وثقتها بنفسها المبنية على التفاؤل.[14]

وكانـت البيانـات الإعلامية الصادرة عن أعضاء هيئة العاملين في البيـت الأبيض تؤكد أنه لا أنا، ولا سكوكروفت قد استشرنا في صدد صياغة الكلمات، وقد وصفت الخطبة بأنها «إعلان مستقل» رئاسي من قبل وزير خارجيته.

أما ما فات المحدقون بإعجاب في الفقرة المعينة أن يفهموه فكان: أن الحرب انتهت، بهذه الفقرة أو بدونها، وكان الموضوع الوحيد الباقي هو كم من الفيتناميين نستطيع أن ننقذ، وإلى متى سيظل مسموحاً أن نواصـل هـذا النشاط الإنساني في جوهـره وكان مرغوباً أن يكون هناك بعض الغموض والالتباس في مسألـة على أي مدى نريـد الذهاب في تحقيق هدفنا. وقد وصفت هـذه الاستراتيجية للجنة مخصصات البيت الأبيض في 21 نيسان:

لقـد كانـت صعوبتنا ومشكلتنا، في الأيام العشرة الأخيرة، تتمثل فـي توجيه أنفسنا بحيث نستطيع أن ننقـذ القدر الأقصى من الأرواح من دون أن نثيـر في الوقت ذاته، فزعاً سوف يحول دون إنقاذ أية أرواح،

وإذا كنتم تفهمون فهذا هو المبدأ الأساسي لسياستنا على مدى الأيام العشرة الأخيرة، وسيكون هذا مفتاحاً للكثير من الأشياء التي تم القيام بها.

أما في مجال الممارسة فلم تغير خطبة تولين إدارة فورد للأمور. وفي وقت متأخر من ذلك أصدر تعليماته إلى رون نيسن لإبلاغ وسائل الأعلام أنه يظل واقفاً إلى جانب طلبه 722 مليون دولار معونة لفيتنام، وفي وسط هذه الزوبعة التي تحطم القلوب من حولنا، لم أكن أجد جدوى من مناقشة أوجه التفوق في كتابة الخطبة مع الرئيس. ولم أطرح هذه القضية نهائياً، ولم يقدم فورد أي تفسير. يبدو أنه لم يأخذ بعين الاعتبار خطاب تولين لأنه لم يأت على ذكره في مذكراته.

الإجلاء

بعد أيام قليلة من خطبة تولين، كان كل شيء هادئاً مع أن الشيوعيين قد تقدموا إلى نطاق مدى المدفعية من مطار تان سون نهوت. هل كانوا يتجمعون من أجل هجوم نهائي، أم أنهم فتحوا ثغرة من أجل الإجلاء؟

كانوا يفعلون الاثنين حقاً. ففي 24 نيسان، هتف دوبرينين في الساعة الرابعة بعد الظهر وقرأ عليّ الجواب السوفييتي عن مذكرتنا في 19 نيسان. بدت وكأنها تعبر عن ضوء أخضر لإجلاء الأمريكيين، وزعمت أن هانوي تبحث عن نتيجة سياسية على ضوء اتفاقية باريس. فالفيتناميون الشماليون يفترض أنهم أخبروا موسكو أنهم « لاينوون الإساءة إلى مكانة الولايات المتحدة، وهذا ماشجع بريجينيف على التعبير عن أمله في تهدئة رغبة أمريكا بالمغامرة في أننا لن نتخذ أي إجراء «مشحون بمخاطرة جديدة تجاه الوضع في الهند الصينية».

وإذا كانت مذكرة السوفييت تعني ماقيل، فستكون هناك فسحة للإخلاء، ومع أن المذكرة اقتصرت على إجلاء الأمريكيين، فإن تأثيرها العملي كان يعني إخلاء الفيتناميين أيضاً، لأننا كنا نقوم بإجلاء الطرفين معاً، على الطائرات ذاتها. وإذا كانت هانوي تقصد حقاً الإجراءات الواردة في اتفاقية باريس، يمكن عندئذ كسب بعض الوقت.

النتيجة ستكون بالطبع هي نفسها: الهيمنة الشيوعية الشاملة التي قاومناها بشدة لمدة عقود من الزمن. ومع ذلك ومن أجل إنقاذ المزيد من أرواح الفيتناميين كنا مستعدين لصك أسناننا والمتابعة. فقد أعطتنا رغبة بريجينيف في إنقاذ مؤتمر الأمن الأوروبي بعض الامتياز مع أن الكونغرس كان ينذر بأننا قد نعود إلى الوراء في اللحظة الأخيرة.

وافق اجتماع موظفي الخارجية الخاص بتقويم رسالة بريجينيف على أننا يمكن أن نستخدمها لكسب بعض الوقت مع أن بيل هيلاند، رئيس مكتب المخابرات والأبحاث وجد أن مدة اسبوع قليلة. لهذا أعطيت

تعليمات إلى مارتن بتخفيض أعداد الأمريكيين إلى أقل من 800 الرقم الذي يمكن أن يرفع حسب تقديرات الأركان المشتركة في مدة ساعتين ونصف، وحشد من تبقى بحيث يستمر الجسر الجوي في إنقاذ أقصى رقم من الفيتناميين. في بعد ظهر 42 نيسان، عقد فورد اجتماع لمجلس الأمن القومي، (NSC) لمراجعة خطط الإجلاء النهائية. استمر شليسنغر في الدفاع عن إجلاء فوري لمن تبقى من الأمريكيين، مما يعني بالطبع إجلاء الفيتناميين أيضاً. وقد وضع فورد حداً للنقاش في لقاء في 9 نيسان:

فورد: أفهم المخاطر. إنها مخاطرتي وسأقوم بها.

ولكن دعونا نتأكد من أننا ننفذ الأوامر.

روكفلر: لاتستطيع أن تضمن مصالح أمريكا بدون مجازفات.

فورد: بعون من الله.

أجبنا السوفييت، متعلقين بكل تمديد أخير ممكن، في الساعة 8,25 مساء في 24 نيسان. حيث طرحنا في مذكرتنا عدداً من الأسئلة على أمل أن يستمر الجسر الجوي فميا يعُد السوفييت إجاباتهم. إذ قلنا في رسالتنا. «إنه نظراً للجواب (السوفييتي) البناء.. ستقوم الولايات المتحدة بإجلاء الأمريكيين على أمل أن تبقى الأوضاع ملائمة». ودعونا هانوي إلى أن تنظر في كيفية تنفيذ أحكام اتفاقية باريس «المتعلقة بتحقيق تسوية سياسية». وأعاد الرئيس التأكيد لبريجينيف بأننا سنمتنع عما كان يعتبره الكونغرس ممنوعاً، على أية حال. طالما أنه لايوجد أي تدخل في الإجلاء فإن مذكرتنا ستستمر في دفع الولايات المتحدة «لئن لا نتخذ أية خطوة يمكن أن تفاقم الموقف».

كما قلت في اجتماع موظفي وزارة الخارجية: كل مابقي لنا الآن هو أن نظهر الجلد. إذ ليس أمامنا إلا القليل مما يمكن إنجازه بالمناورة الدبلوماسية، ولاسيما عند التعامل مع المتشددين من هانوي.

وفي عشية 28 نيسان بتوقيت واشنطن (29 نيسان في فيتنام) بدأ الانهيار النهائي لسايغون بهجوم صاروخي على مطار تان سون نهوت. كان قد تجمع هناك ثمانية آلاف فيتنامي و 400 أمريكي لتمكين طائرات الإجلاء من أن تمتلىء وتعود بدون تأخير.

وعلى الرغم من أن إطلاق النار توقف سريعاً، إلا أن اللاجئين كانوا في خطر جسيم. فقد انتشروا بسبب الذعر على الممرات ما أدى عملياً إلى توقف الجسر الجوي. وفي الساعة 10,45 بعد الظهر بتوقيت واشنطن في 28 نيسان أمر فورد كارهاً بالإجلاء الأخير. وكنا قبل ذلك بقليل لانتحدث بلهجة تشاؤمية كاللهجة التي يمكن أن تظهر في كتب التاريخ. بل لعلها كانت حول الشعور بالتفجع بسبب الضحايا البائسة الذين كنا على وشك أن نخلفهم وراءنا.

كيسنجر: لديهم الصلاحية لطلب أي جسر جوي للطوارىء في أي وقت الليلة ـ ليلتنا ـ وينبغي أن يطلبوا ذلك قبل نهاية النهار هناك.

فورد: في نهاية النهار هناك أم غداً صباحاً هنا؟

كيسنجر: غداً صباحاً هنا إذا لم تحملهم طائرات C - 130 بعيداً، عندئذ ستقوم الحوامات بذلك.

فورد: ياللعار! 24 ساعة أكثر أم 12 ساعة أكثر؟

كيسنجر: 12 ساعة أكثر ونستطيع أن ننقذ حياة 8 آلاف شخص.

فورد: هنري، لقد فعلنا كل بوسعنا.

كيسنجر: السيد الرئيس، لقد نفذت ذلك منفرداً ضد كل النصائح، وقمنا بالعمل بقدر المستطاع.

فورد: حسناً، أنا آمل فقط أن (الجنرال) سميث و(غراهام) مارتن يفهمان الآن وضعنا ولن يترددا في التصرف.

كيسنجر: حسناً، لقد تفحصنا الأمر مع مارتن. إذ تحدثت معه قبل 51 دقيقة، أنا لاأقول إنه سيفعل ذلك عن رغبة، ولكنه سيقوم بذلك. سيبقى هناك مع اثنين كي يهتم بأمريكيين يمكن أن يظهروا من الغابة. ولكنني لاأظن أننا نستطيع تبرير ذلك.

فورد: أنا لا أعتقد ذلك أيضاً، ياهنري.

كيسنجر: لانستطيع أن نقدم لهم أي رهائن.

(من أجل شرح الخليط العجيب من الإدانة والحزن تجاه تلك الساعات الأخيرة، ألحقت المحادثات المتعلقة بذلك في الملاحظات).[15]

في الساعة 11 بعد الظهر اتصلت بغراهام مارتن وطلبت منه أن يتقيد بـ: جميع الأمريكيين إذ ينبغي أن يغادروا معاً مع أكبر عدد ممكن من الفيتناميين يمكن للحوامات أن تحمله في اليوم الأخير للجسر الجوي. وافق مارتن على الإجلاء ولكنه اقترح البقاء متخلفاً مع اثنين من المتطوعين للإشراف على النقل، مؤكداً شكي بأنه سيتصرف مثل الجنرال جورج غوردون ـ القائد البريطاني المشهور الذي قُتل في الخرطوم على يد المهدي عام 1885 بعد رفض المغادرة. لم نكن بحاجة إلى أن نترك سفيرنا في سايغون يؤخذ رهينة من قبل الفيتناميين الشماليين في اليوم الذي سقط فيه جهدنا. لذا أمرت مارتن بالمغادرة. «نريد أبطالنا أن يعودوا إلى واشنطن، إذ لايوجد الكثير منهم هنا».

لم يكن من الواضح ما إذا كانت هانوي قد سرعت الهجوم النهائي على سايغون في اللحظة الأخيرة أو ما إذا كان الفيتناميون الشماليون ينتهجون خطة بحيث يكون جوابهم للسوفييت خدعتهم الأخيرة.

في ذلك الوقت كنت أعتقد أن خطبة فورد في تولين قد سرعت جدول أعمال هانوي، لأنها عملياً أزالت الخطر الأخير في تدخل الأمريكيين ثانية ـ رغم أن ذلك كان يتطلب عملياً مستوى غير عادي من جنون

العظمـة الفيتنامي الشمالي لأخذ هذا التهديد على محمل الجد. فمذكرات الجنرال ڤان دونغ تين لاتشير إلـى خطبة فورد، كما فعلت بالنسبة للمجادلات الأمريكيـة الداخلية الأخرى.[16] ووفقاً لما قاله وينغ، فإن ماسرع قرار هانوي كان «الخطط الدبلوماسية الذكية» للولايات المتحدة والدمى التابعة لها:

إن الخطـط الدبلوماسيـة الذكيـة للأمريكيين وأتباعهم والتي جـاءت واحدة إثر أخرى، مترافقة مع تهديدنا، كانت تهدف إلى مجابهة خططنا في الهجوم الشامل على سايغون، وبيّنت أكثر أن علينا أن نقاتل

بإلحـاح أكبـر، فنهجم بصـورة أسرع، ونستغـل كل فرصة، وكل دقيقة مـن أجل النصر النهائي.[17]

كانت فكرة هانوي عن «الخطط الدبلوماسية الذكية» هي أن تحاول سايغون تنفيذ الخطوات التي كانت تطالـب بها حركة الاحتجاج الأمريكية لعقد من الزمن: الإطاحـة بثيو، وتوسيع الحكومةُ، بالفعل غادر ثيو فـي 24 نيسـان، وقام خليفته الرئيس تران ڤان هونغ بتوسيـع الحكومة بدعوة الجنرال ويونغ ڤان مينه إلى تولي رئاسة الوزارة. «مينه الكبير»، كما كان اسمه الذي اشتهر به، كان الأمل الكبير للمحتجين ضد فيتنام منذ 1967، عندما خسر الصراع على السلطة مع ثيو، مينه الذي كان يدعي بأنه محايد كان يتوقع أن يكون متبدلاً من الشيوعيين، رغم أن لي دول ثو قد أعطاني انطباعاً مغايراً تماماً.

في الصراع النهائي حول من سيكون السفينة الغارقة، رفض مينه أن يكون رئيساً للوزراء لأنه قال: إن العرض جاء من بنية السلطة القديمة، التي أطيح بها الآن. وبدلاً من ذلك طلب من «الجمعية الوطنية» أن تعّينـه رئيساً من أجل القيام بمهمة إنهاء الحـرب وخلق إدارة موقتة. انصرم يومان لتنفيذ هذه المناورة، ونُصّـب «مينـه الكبيـر» رئيساً في 27 نيسان. إذ بقي فـي السلطة أقل من 72 ساعـة، وهي مدة لاتكفي إلا لاتخـاذ إجراءين مهميـن: وهما الطلب من هانوي وقف إطـلاق النار والقيام بمفاوضـات سياسية ـ وقد رفضا ـ وفي 29 نيسان طالب بأن يغادر جميع الأمريكيين في غضون 24 ساعة. ولما كان ذلك يتوافق بدقة مـع خطـة انسحابنا، فقد ساعد بالفعل على خروجنـا من التهمة بأننا تخلينا عـن أصدقائنا. وفي الوقت نفسه حاولت وزارة الخارجية الفرنسية إقامة اتصالات دبلوماسية مع ممثل الخارجية الفيتنامية في باريس والدبلوماسيين الأمريكيين ـ وهو ماكان يتطلع إليه الممثل الفيتنامي.

ولكـن زعماء هانوي لم يحاربوا مدة ثلاث عقود من أجـل المهادنة مع حكومة مؤقتة في سايغون، أقل كثيـراً مـن أن تكون دولة مستقلة ـ حتى لو كانـت شيوعية. ومن دواعي التناقض أن تنصيب مينه قد سرّع مـن جدول أعمال هانوي. ولعلها أصبحت أكثر استعـداداً لتضمن لثيو فرصة من الإمهال أكثر من خلفائه، فقـد كان نظـام حكم ثيو ينهار، وبضعة أيام أخرى لن تثبته. ولكن إذا ظهرت حكومة معترف بها دولياً في سايغـون قادرة على التفاوض لوقف إطلاق النار والتعامل مع الولايات المتحدة، فمن الممكن أن تقود إلى

نـوع من الاستقلال لكوريا الجنوبية ـ حتى لو كانـت شيوعية. وهذا لن تشجعه هانوي. لذا فإن ماحدث أن معركة هانوي الأخيرة في سايغون كانت موجهة لدواعي السخرية إلى شيوعيي فيتنام الجنوبية والتي كانت حركة رجال العابات التابعة لهم قد بدأت بهذه المأساة الكاملة في كل تلك السنوات السابقة.

لم يكن من دواعي الدهشة ألا يتحقق الاتصال مع PRG في باريس.

اليوم الأخير

بعـد ملاحقـة البيت الأبيض طيلة ثلاثـة أسابيع من أجـل الإسراع بالإجلاء النهائـي، تحولت خطط البنتاغـون لتنفيـذه إلـى أن تكون بعيـدة عن الدقـة. إذ كان هناك انقطـاع في الاتصـالات بين طائرات الهليوكوبتـر على حاملات الطائرات والتغطية الجوية التاكتيكية لها القيمة في تايلاند، مما أدى إلى عدم توافـق بيـن عدة قيـادات حول موعد بداية العملية، ومـا إذا كان ذلك سيتم وفق توقيـت غرينيتش أو وفق التوقيت المحلي، فكان لابد من إعداد خطة جديدة، وبدأت العملية بإلحاح بعد عدة أيام من التأخير.

فيمـا كان الأمريكيـون قد رُحّلوا من سطـح السفارة الأمريكية أثناء صبـاح 29 نيسان (حسب توقيت واشنطن) قام فورد وشليسينغر وأنا بإعلام قيادة الكونغرس. مع استمرارنا في القتال في معارك الأمس، إذ ظل المشرعون يتحدثون عن حل «سياسي»، نظراً لأن الإجلاء الذي وضعناه قد أنهى قدرة أمريكا على التأثير في النتيجة السياسية.

بعـد ذلـك صمت كل شيء. إذ جلست وحيداً في مكتبي في الجناح الغربي من البيت الأبيض، وقد كان مجلـس الأمـن القومي (NSC) مركز قيادة واشنطن لعملية الإجلاء من فيتنام رغم أن الجسر الجوي قد جـرى تحت إشراف وتنفيـذ البنتاغون. السجل الدقيـق للبنتاغون حول طلباته المتكـررة من أجل إجلاء سريع، أكد أن فورد وأنا سنكون مسؤولين إذا ماجرى أي شيء بشكل خاطىء في هذه اللحظة الأخيرة. من ناحيـة ثانية، لافـورد ولا أنا كنا نستطيع أن نؤثرفي النتيجة أطول من ذلك، فقد كنا شاهدين على الفصل الأخير. لذا كانا كلانا يجلس في مكتبه، متحرراً من الواجبات الأخرى، وغير قادر مع هذا على التأثير في المأساة الجارية، بهدوء نادراً مالمسناه في المناصب العليا.

فـي ذلك السكون الروحـي كانت فيتنام تعود إلى ذاكرتي بحركة بطيئة. شعـرت أنني مستنزفاً للغاية كـي أقوم بتحليل القرارات المختلفة التـي أدت إلى هذه اللحظة من الآمال المحبطة، وبقيامي بذلك ربما كان بوسعي أن أستنتج، كما زلت أعتقد أنه لايوجد بديل حقيقي أقل من الاستراتيجية التي اتبعناها، ولكن ماكان يعذبني في تلك الساعات هو دوري في الخطوة مابعد الأخيرة: وهو الإسراع بالمفاوضات بعد عرض دول ثـو الاختراقي فـي 8 ت1، 1972. إذ لايوجد لدي شك بأن الفيتناميين الشماليين ما كافىء يمكن أن يعلنوا ماقاموا به قبل الوقت الذي اختاروه، وكان ثيو سيتشبث بمواقفه على أية حال، والنتيجة الدبلوماسية كان يمكن أن تكون أقل ملائمة. أما الكونغرس فقد كان بوسعه أن يفرض وقف الاعتمادات.

مـاكان يمزقنـي منذ ذاك الحين هو ما إذا كانت النتيجة يمكـن أن تكون أفضل. هل الفوضى في بنية سايغون هي التي قادت إلى الانهيار عام 1975 والتي بدأت من خطوة المفاوضات التي وفرناها عام 1972؟، هل نيكسون وأنا كنا نفترض الكثير عندما حاولنا بأن نلقي كل ثقلنا على مفهومنا للشرف القومي؟ هل كان ثمة أساس لابتهاجي وابتهاج فريق المفاوضات التابع لي في 8 ت1، 1972 عندما وافق لي دول ثو عملياً على شروطنا، وظننا أننا على حافة نهاية مشرفة للحرب ولمصالحة وطنية معاً؟

أنا وزملائي اعتقدنا أنه كان من واجبنا أن نناضل من أجل نتيجة خلاف التنازل. إذ يستطيع المحتجون أن يتحدثـوا عن فيتنام على أنها مجتمع منحرف، ولكن عندما كنت أفكر أنا وزملائي في فيتنام كنا نفكر فـي رجال ونساء مخلصين ـ من جنـود وموظفين ـ ناضلوا وعانوا هناك، وفي زملائنا الفيتناميين الذين كتب عليهم أن يواجهوا مصيراً غير واضح ولكن مؤلم بالتأكيد، هؤلاء الأمريكيين قد اعتقدوا بأمانة أنهم كانـوا يدافعون عـن قضية الحرية ضد عدو متوحش في غابات موحشة ومـزارع أرز نائية، مع حط وسائل الإعلام مـن شأنهم، وتعرضهم لانتقادات الكونغرس، واستهزاء حركـة الاحتجاج، كانوا يجسدون تقاليد أمريـكا المثالية، مخاطرين بحياتهـم منفقين شبابهم في نضال شرعت به مجموعات القيادة الأمريكية، ثم تخلت عنه، وأخيراً أدانته. لقد كانوا هم وليس تفاحاتهم القليلة الفاسدة، أهدافهم وليس إخفاقاتهم، فقـد كانـت المسؤولية الأمريكية من أجـل السلامة عالم حر وليس خيبات الأمـل المتلازمة معه هي التي صاغت أفكاري وأنا جالس في مكتبي وفيتنام تنزف.

قطع سلسلة أفكاري مكالمة هاتفية تلقيتها ذلك اليوم لاصلة لها بالحرب. كانت من لي ووسرمان رئيس MCA، عمـلاق الاتصالات في هوليـوود، وصديقي: «الغاية من مخابرتي أن أخبرك أنه مع كل المشكلات التي تشغلك هناك كثير من أصدقائك هنا يفكرون بك».

أوقـف المكالمـة قبـل أن أستطيع الإجابة. فقد كان لـي ردسرمان ديمقراطياً مخلصـاً، وناقداً دائماً لسياستنا في فيتنام، ولم يكن لي شأن بعمله. لقد كان عملاً يدل على امتنان، لن أنساه أبداً.

لـم تلبـث أن أعادتني فيتنام إلى المأسـاة وخيبات الأمل. فقد أمر فورد، على الرغـم من رغبته في إنهاء الجسـر الجـوي بالاستمرار به طوال الليل بحيث يمكن إنقاذ أكبر عدد ممكن من الفيتناميين ـ ولاسيما أولئك الذين كانوا داخل مجمع السفارة. وعند الساعة 2 بعد الظهر، علمت أنه مايزال 760 شخصاً هناك، وأن طائرة مروحية واحدة قد حطت هناك في الساعتين الماضيتين لسبب ما. هتفت لشليسنغر لمناقشة كيف نستطيع أن نُخلي هذه المجموعة وأن نحدد في الوقت نفسه موعداً نهائياً يتم خلاله إكمال الإخلاء. إذ كان من الواضح أن الفيتناميين الشماليين سوف يحتلون سايغون عند مطلع الفجر، وسرعان ماتوافقنا أنا وشليسنغر.

رأينـا أن 13 حوامـة ستقـوم بالعمـل. ولكن من أجـل مزيد من السلامـة، وافقنا علـى أن يكون عدد الطائرات 19 طائرة. بحيث يكون مارتن في آخر حوامة.

المحادثـة بيني وبين شليسنغر التي اتخذ خلالها هـذا القرار وصفت أجواء تلك الساعات أفضل مما يستطيعه أي قاص:

كيسينجر: جيم

شليسنغر: نعم ياهنري. سوف نرسل إليهم رسالة بشأن الـ 46 و الـ 53 (نوعان من الحوامات) أي 19 حوامة تنقل 760 شخصاً، وتوقعنا أن تصل قرابة الساعة 3,30.

كيسينجر: حسناً. الآن أخبره ياجيم. إذا لم تقف أن هذا أمر رئاسي فإنه لن يقوم بالعمل.

شليسنغر: حقاً سنفعل ذلك.

كيسينجر: هذا ماأريد أن أتأكد منه عن طريقك.

شليسنغر: سيفعل ذلك، إنه رجل صاحب رسالة.

كيسينجر: نعم، لقد فقد ولداً هناك.

شليسنجر: سوف تعجب بذلك الرجل.

كيسينجر: إن أفكاره تسير في الاتجاه الصحيح.

شليسنغر: هذا صحيح. إخلاص في العمل، وطاقة.

كيسينجر: أعتقد..

شليسنغر: أنت تبكي.

كيسينجر: أعتقد أن كلينا سيكون سعيداً باتخاذنا هذا الإجراء.

أذكـر هذا المشهد لأنني بعد عشرين سنة كنت أراقب برنامجاً تلفزيونياً، حيث كان يعبر عقيد بشكل موثر عن غضبه لأن 400 من الأصدقاء الفيتناميين للولايات المتحدة، قد تركوا داخل مجمع السفارة حيث كان يساعـد على إنجاز الإخلاء. ذهلت وتعقبت العقيد حتى اجتمعت به وتأكدت من معلوماته التي ذكرها فـي البرنامـج. لم يخبرني أحد بمثـل هذا، كما لا يوجد أي شيء يدل على ذلـك في كثير من الاجتماعات المتعلقة بالأحداث. مازلت لاأفهم ماذا حدث. أعرف أن 19 حوامة قد غادرت، وأن مارثن كان في الحوامة الأخيرة. ليس لدي أي تفسير لماذا ترك أحدهم إلى أن أعيد فتح أبواب السفارة لإقحام مجموعة أخرى غير المجموعة الأولى (760 شخصاً).

بعد الساعة الرابعة بوقت قصير كنت أستطيع أن أؤكد لجورج ميني أن زعماء حزب العمال الفيتناميين قـد تم إنقاذهـم. كان طلبه واحداً من طلبات كثيرة تلقيناها لإنقاذ بعضـ الفيتناميين ممن لهم علاقات خاصـة مـع الولايات المتحدة، وفـي الساعة 4,58 بعد الظهـر بتوقيت واشنطن غادر مارثـن في الحوامة

التاسعة عشرة أو الأخيرة. لقد قام بعمل استثنائي. كان شجاعاً ومكرساً نفسه للخدمات الإنسانية. فعلى مدى فترة أسبوعين استطاع مارتن تنظيم إخلاء مايزيد على 50 ألف فيتنامي جنوبي وستة آلاف أمريكي مع وقوع 4 ضحايا فقط، فقد حافظ على الوضع بصمت وهدوء كي يسمح لثمانين ألف لاجىء آخرين ينجوا بأنفسهم.

حالما تأكدت أن الحوامة الأخيرة قد غادرت اتخذت طريقتي لأخبر الصحافة. بعد أن لخصت أحداث النهار، فأجبت عن أسئلة انصب معظمها حول التأكد من أن كل ماحدث كان خطأ لايغتفر. رفضت أن ابتلع الطعم. وقلت:

أعتقد أن هذه ليست المناسبة، حيث غادر آخر جندي أمريكي سايغون، لإعطاء بيان لعقد ونصف من الزمن حول سياسة أمريكا الخارجية، إذ قد يقال إن في خمس إدارات متعاقبة كان ثمة شيء ما في تقويمهم، لأن جهدهم لعدة أسباب لم ينجح.

لقد أشرت من قبل إلى أن عدة عوامل خاصة كان لها دورها في السنوات الأخيرة، ولكنني أعتقد أن مانحتاجه الآن في هذه البلاد، لمدة بضعة أسابيع على الأقل، وآمل أن تكون بضعة شهور، أن نشفي الجراح وأن نضع فيتنام خلفنا وأن نركز على مشكلات المستقبل[18].

أثناء عودتي إلى مكتبي وجدت أن فيتنام لن تذهب ذكراها بسهولة. فيما كان غراهام مارتن وباقي طاقم السفارة قد غادروا حقاً في الساعة 4,58 صباحاً، بتوقيت سايغون، بينما عناصر من اللواء البرمائي البحري الذي ـ نولى حراسة الإجلاء ـ والذي يتألف من 129 بحاراً ـ قد تخلف لسبب غير مفهوم. وقد تولدت ثغرات ضخمة من المصداقية أقل من ذلك، ولكن أولئك الذين كان يجتمعون معنا في غرفة دراسة الأوضاع في البيت الأبيض، لم يكن لديهم وقت للقلق تجاه علاقات عامة. ثم استؤنف جسر الحوامات. وقد كانت الساعة 7,35 بعد الظهر بتوقيت واشنطن عندما غادرت الحوامة التي تحمل آخر جنود البحرية سطح السفارة، وبعد ساعتين اندفعت الدبابات الفيتنامية الشمالية إلى سايغون. إحدى هذه الدبابات والتي كانت في المقدمة تحطمت عند بوابة القصر الرئاسي. لم يكن هناك تغيير في السلطة لأن هذا قد يعني وجود دولة فيتنام الجنوبية مستقلة أو ذات استقلال ذاتي على الأقل . بدلاً من ذلك جرى اعتقال « مينه الكبير» وحكومته بكاملها قد اعتقلوا واختفوا عن أنظار الشعب، اختفت مع « مينه الكبير» الحكومة الثورية الإقليمية (PRG) إطار جبهة التحرير الوطني، التي اشتهرت ففي الغرب لفترة عقد من الزمن على أنها الجوهر المزعوم لحكومة التحالف الوطني في فيتنام الجنوبية. في غضون سنتين تحدث الفيتنام وفقاً للنظام الشيوعي. ولم يعد لفيتنام الجنوبي أي استقلال ذاتي. فمئات الألوف من الفيتناميين الجنوبيين، بمن فيهم من كانوا في الحكومة أو القوات المسلحة دخلوا ماسمُي معسكرات إعادة التأهيل، حيث أمضوا على الأقل بضع سنوات. فرّ كثيرون ـ يقدرون بعشرات الآلاف. أما الرهبان

البوذيـون الذين سعوا إلى استقلال ذاتي عن حكومة سايغون والذين توسلوا إلى حكومة كينيدي للإطاحة برئيس فيتنام الجنوبية السابق نغودينه دييم، فقد سجنوا في ظروف قاسية للغاية.

فـي واشنطـن لم يتغير شيء يذكر نتيجة لمأسـاة فيتنام. وفي الأول من أيـار، 1975، أي بعد يوم من سقـوط سايغـون رفض مجلس النواب الموافقة علـى طلب من الرئيس فورد بتخصيصـ مبلغ 327 مليون دولار لتوفيـر الرعاية والمواصلات للاجئين من الهند ــ صينيين. إذ كان زعماء الكونغرس طوال أسابيع يتحدثـون ضد الجهود الراميـة لإنقاذ فيتناميين، كما خفض المجلس إعانة اللاجئين لأولئك الذين جرى إنقاذهم.

مـن أجـل راحتنا لابد أن نقوّم فـي يوم ما؛ لماذا لم يجـد الرجال الطيبون فـي كلا الجانبين طريقة لتجنـب هذه الكارثة، ولماذا هزتنا مأساتنـا الداخلية أولاً ثم سيطرت علينا. ولكن في اليوم الذي غادرت فيـه آخر حوامة سطح السفارة، لم يبق إلا شعور بالفـراغ. فأولئك الذين خاضوا المعارك لتجنب الكارثة النهائيـة كانوا قريبين جـداً من المأساة لمراجعة تاريخ 20 سنة من التدخـل الأمريكي. والآن بات الوقت متأخراً كثيراً للوقوف في وجه مجرى الأحداث.

obeikandl.com